

من هنا وهناك

حديث ناشر لكتاب قديم

عليهم، ثم دهم أحدهم فوضوا جامدين !...
انظر إلينا وقد رفع أحدنا رأسه كأنه
مستيقظ من سبات عميق، ثم مد يده يفتح
القاموس وهو صامت لا يتكلم، ثم يجيل
نظره فيه ثم يلقيه، ونحن نعلم أن رأبا عن له
فأراد أن يثبت منه، فأحيانا يهتف بنا،
وأحيانا يلقى القاموس في تحاذل وابتئاس،
وقد عاد نظره عالقاً بهذه الكلمة المطموسة
أو رأس هذا الحرف الطائر أو تلك النقطة
الخفية، يدقق النظر ويستوحى الفكر،
ويعصر نفسه عصراً حتى يجمد في مكانه...
ويسأل بضنا: ماذا كنت تفعلنا؟ فأحيانا
يقول لا شيء، وأحيانا يصارحنا بظنه مع
اعترافه بتفاهته، فنتضاحك ونشكره على
صراحته، وربما قلنا له لقد كان سكونك
وتأملك أجدى علينا !...
ونقرأ في المخطوطة شطر هذا البيت :

أيسيل على الماء في كل تلمة

ونراه لا يستقيم مع العروض، فننظر
في رسم حروفه فنراها صحيحة واضحة،
ولا نجد مسوغاً لنقول في حاشية الكتاب
هذه العبارة المعتادة التي نلجأ إليها كارهين :
« كذا بالأصل ». ونجمل في أنفسنا هذه
الفروض الكثيرة التي تعودنا أن نجعلها عند
ما يحزب الأمر وتستبهم الطريق، فلانجد البيت
يستقيم مع فرض منها... « الماء يسيل
في كل تلمة » كلام يشبه أن يكون صحيحاً لكن
البيت مكسور، فإذا هناك من خطأ؟ ويمضي
وقت ليس بالقليل على تلك الرؤوس المتلاصقة

لو أنك رأيتنا ونحن حول مخطوطة
تنشرها لحسبتنا جماعة من المجانين قد خيل
لهم جنونهم شيئاً، فالتصقت رؤوسهم وحملت
عيونهم وانقذت ألسنتهم... مجموعة من
الرءوس متلاصقة تكون نصف دائرة، قد
أرسلت عيونها خيوطاً من النظر حادة مضيئة
فتلاقت جميعاً في نقطة واحدة على كتاب
قديم!... تلاقت عند هذا الحرف المطموس
أو في رأس هذه الواو الطائرة أو على نقطة
تلك الصاد الهاربة! ترانا سكوتاً والحقيقة
أنتا نهتف بكل حواسنا العقلية والفنية...
ونستوحى ما نعلم وما لا نعلم، ونمسك بخناق
هذا الرجل للمسكين الذي نسخ الكتاب
كيف هانت عليه رأس هذه الواو فصار
راء. وأحيانا ترانا نحاسب هذه الحشرة
المسكينة التي توافها الله منذ أكثر من ألف
سنة، نحاسبها لأنها أكلت نقطة الجيم مثلاً
فجعلتنا نراها حاء، فلم تكن هذه الحشرة
التي نسميها الأرضة، تدري أنه بعد ألف
سنة من وفاتها تقوم جامعة فؤاد الأول بنشر
هذا الكتاب، وتخلق عيون كثيرة في هذه
النقطة الضئيلة التي ملأت منها بطنها!...
أنظر إلينا ونحن على تلك الحال حول
مخطوطتنا، وقد عن لأحدنا رأى فأعلنه فارقت
الرءوس ولعت العيون، وأسرعنا لنلثم بين
هذا الوجه من الرأي ورسم الكلمة
في المخطوط. ثم انظر إلى صاحب الرأي كيف
أشرق وجهه بالرضا حين وافقناه وهنأناه!...
ثم مضى في قراءة المخطوطة كجماعة سفر
وقفوا عند بعض الطريق حين أتهمت

توحى إليه شيئاً لا يكاد يتبينه تماماً. أتكون العبارة «أسبل على الماء»؟ وتمتد اليد إلى القاموس فلا تجد في مادة سبل يسبل ما يؤتم هذا المعنى ويتفق مع هذه الصيغة . ثم يعود الخيال فيضع أمام عينيه هذه الكلمة الغريبة التي اخترعها آنفاً فيطيل النظر في الكلمة «أسبل» وبعد لحظة وجيزة تبوى هذه الياء التي جاءت بعد السين وتتحم السين باللام سريعاً وتصبح الكلمة «أسبل على الماء في كل تلمة» كلام تام مستقيم؛ فاليسل الحرام والشاعر يشكو من الحرمان، والصيغة ورسم الحروف صحيحان، فلا يلبث أحدنا أن يهتف بها كأن إلهاماً تنزل عليه من السماء، ونهتف نحن به مهئين ونسرع إلى تدوينها وإثباتها في الأصل، ثم نكتب في الحاشية هذه العبارة التي نكتبها كثيراً والتي ربما لا يراها بعض القراء : «رسم الكلمة في الأصل : أسبل» !

وتسأل هل تذوقنا هذا الشعر الذي كنا نقرؤه ؟ لكأنما لا يهمننا منه ونحن نقوم نصه فنثبت اختلافات رواياته إلا ما فلت يد الناسخ به من تصحيف وتحريف وما أكلت الأرضة من نقط أو حروف ! أذكر أنا كنا عاكفين ذات يوم على مخطوطتنا وقد عرض فيها بيت أبي نواس :

عرضن للذي تحب محب

ثم دعه يروضه إبليس

وكدنا والله نحضي إلى ما بعده ماداء البيت صحيحاً لم يمت به عابث لولا أن سمعنا أحدنا يضرب يده على المائدة، ويهمهم بشيء في نفسه، ثم يرفع صوته ويردد البيت وقد أخذه الطرب وتملكته فنتته . . . وانتبهنا نحن ورددنا البيت فإذا هو رائع حقاً، فوقفنا عنده قليلاً وقد نسبنا كل شيء وأخذنا نتحدث في هذه النصائح النواسية كيف يعلمنا أبو نواس

وهذه الديون الشاخصة . . . وتمتد الأيدي إلى القاموس بين الفينة والفينة، ونظل نحيل الفكر ونقلب النظر ونفترض الفروض . وما دام البيت في صيغة الاستفهام فلا معنى عن بقاء هذه الألف في أول كلمة «يسبل» . على أن الصيغة التي يجب أن تبني عليها الكلمة هي صيغة «فعل» على الاستفهام، فما عسى أن تكون هذه الصيغة من سال يسيل ؟ . . . إذن لابد أن تكون «أسبل على الماء في كل تلمة» فهو صحيح الوزن مستقيم المعنى . . . غير أن الشاعر هنا في معرض الشكوى فكيف يستقيم المعنى على هذا، وما يجوز أن يشكو لأن الماء يسيل عليه من كل تلمة . . . كلا، وإذن فلنخلص أنفسنا من هذا الحكم السابق وهذا الافتراض الواهم الذي خدع الناسخ وخدعنا، فلم لا تكون الكلمة من مادة أخرى غير مادة سال يسيل . ما عسى أن تكون هذه المادة الأخرى أو هذه الكلمة الجديدة على شريطة أن يأتي رسمها قريباً من هذا الرسم الذي كتبه الناسخ ؟ هل قدم الناسخ في بعض الحروف وآخر، أم هل زاد أم نقص ؟ وهنا يأتي دور الخيال الذي يعلق هذه الكلمة أمام عينيه ويظل يضع حرفاً مكان آخر، وينقص حرفاً أو يزيد حرفاً لكي تستقيم له كلمة أخرى جديدة تتوافر فيها هذه الشروط الثلاثة : (١) وزن «أفعل» (٢) معنى الشكوى (٣) حروف مقاربة لهذه الحروف في «أسبل» . ثم يأتي دور النقط بعد الحروف، فما عسى أن يكون في هذه النقط الأربع تحت هاتين اليائين من زيادة أو نقصان ؟ لنبتدئ بالياء الأولى ونحذف منها نقطة، فقد صارت الكلمة «أسبل» وهنا يضحك الخيال قليلاً حين يرى هذه الكلمة التي ولدها والتي لا يتوافر فيها شرط واحد من هذه الشروط الثلاثة . ولكن الذهن مع ذلك يتنبه لهذه الكلمة، فهي كأنها

من هنا وهناك

يعلمون أن الفراغ من سطر واحد ليس بالشيء القليل في بعض الأحيان ! الحق أن ناشر الكتب القديمة يقرأ الشعر فيها لا كما يقرأ الناس. الشعر يقتنهم خياله ويستهوهم جماله ، ولكنه ينظر فيه ليقوم نصه ويصحح روايته ويثبت في الحاشية ما يصح أن يثبت وهو لا يفكر في جمال الشعر ونجاويه مع نفسه بقدر ما يهيم صحة الفن واستقامة المعنى ! نعم قد وقفنا عند بيت أبي نواس هذا وأنسانا قوله « بروضه إبليس » أشياء كثيرة لكننا ما لبثنا أن مضينا إلى غيره ، وربما لم تكن فرحتنا بجماله أكثر من فرحتنا بصحة جروفه !

محمد عبده عزام

الحب وهدينا إلى سبله هذه الملحّة الغدبة وهذه الإشارة المازكة . فليس الحب إذن في حاجة إلى هذه المكاشفة الصريحة الملحّة ، حتى يذلل صعب الحبيب ويخفف من امتناعه وتأنيبه ، ولكنه يكفي أن يعرض له بهواه ، ثم يدعه ، فإن وقع هذا التعريض في نفسه أشد وأقوى ، وسيلعب الشك واليقين بهذا الحبيب ويتناوبان عليه ، ويأتي إبليس أخيرا فيمسكه من يده ويروضه إليه ! وما نكاد نستروح بهذا البيت ونتذوق معانيه حتى يضرعنا عنه ما نحن فيه من تحقيق وتدقيق وعبث ناسخ وأكل أرضة ، فنسرع لنقطع في المخطوطة سطر آخر ؛ فإن الذين يشتغلون بالمخطوطات

مركز المرأة بين الجماعات القبطية

وتأييدا لهذا الرأي يؤكد العارفون أن المرأة هناك إن هي إلا دابة من دواب الحمل ، تساء معاملتها وتحتقر ويلقى على كاهلها كل عبء ثقیل .

والرجل هناك يعني بالصيد في البر والبحر ويشن الغارات . أما المرأة فهي الزراعة ، وهي البانية ، وهي الخائكة ، وهي صانعة الآواني الخزفية ، وهي دابغة الجلود ، وهي صانعة السلال ، وهي فوق ذلك ربة البيت ، وهي التي تعني بالضعاف وبالمرضى . وهي تحمل فوق رأسها جونة فيها كل ما يعينها في كل ما تقوم به من عمل أو صناعة ، وهي تحمل فوق ذلك أيضا أسلحة زوجها ، وهي تحمل أيضا طفلا من أطفالها فوق كل هذه الأثقال .

مما تقدم يبدو أن ذل المرأة الأسترالية وخنوعها أمر مقطوع بصحته . ولكن سير بلدوين سبنسر - وهو الحجة الثقة في هذا الموضوع ، وهو الذي يتكلم عن خبرة لا يرق

جری العرف منذ الزمان البعيد أن يتخذ مركز المرأة مقياسا تقاس به الحضارة لدى مختلف الشعوب .

فإذا سأل سائل : هل لنساء شعب من الشعوب حق الانتخاب ؟ وهل لهن أن يكن طبيبات أو محاميات ؟ وهل لهن حق التصرف فيما يملكن ؟ وكان الجواب بالنفي خفت إذن موازين ذلك الشعب الذي ينكر على النساء تلك الحقوق . وكان ذلك الشعب في قافلة الشعوب من الخوائف القاعدين .

ولكن تقدم علم تاريخ الأجناس البشرية قد أتى على هذا الحكم ظلالة من الشكوك . ولكي نحكم حكما قاطعا في مثل هذه المسائل يجب علينا أن نبتعد عن مبدأ الاطلاق والتعميم ، وأن نعني بدراس الحقائق التي اجتمعت لدينا بعد طول الدرس والتقصي . فقد كاد الاجماع يتعمد على أن سكان استراليا الأصليين هم من أحط الشعوب .

لمن فقدن من الأزواج . وكذلك الرجال يفعلون بأجسامهم ما يفعل النساء ، ولكن الرجال يفعلون ذلك ابتغاء الزينة .

والحمل - وهو عند المرأة المتحضرة مهمة ذات خطر - هو عند المرأة الاسترالية مسألة ليست بذات بال .

ويقول أحد الكتاب : إن القبيلة من القبائل الاسترالية إذا ارتحلت في سفر قاصد أو غير قاصد ، لا تكلف نفسها عناء قليلا أو كثيرا لكي تتم عملية تافهة كعملية الوضع . وكل ما يعملونه هو أنهم يلقون المولود في جلد من جلود الحيوانات ، ثم يستأفون المسير والمرأة الولدة تدلف مع سائر المرتحلين . ولكننا مهما بلغنا في تعداد ما تتمتع به المرأة الاسترالية من مزايا البمشة الفطرية فأننا لا ننكر أن عيشها مما لا تحسد عليه ، فهي تقاسم زوجها ما يلقاه من حرمان وما يلاقيه من خطر . وما يلقاه من حرمان وخطر ليس بالشيء القليل .

ونصيب المرأة من العمل هو ذلك النصيب الضئيل الممل . وهي تتزوج أول ما تبلغ ميلغ النساء . وقلما يسمح لها باختيار زوجها . ولزوجها أن يقرضها لمن شاء من الرجال ، وهي لا تستطيع لهذا الاقتراض رفضا .

وإذا مات عنها زوجها قامت بما تفرضه عليها العادات من حزن متعدي وهم مقيم ، ثم تصبح بعد ذلك - رضية أو كرهت - زوجة لأخ الزوج الفقيد .

ولذلك يقل العجب أو يبطل إذا رأينا المرأة الاسترالية - وهي في شبابها عمشوقة القند هيفاء القوام - تصبح - إذا مسها الكبر - مغضنة الوجه ، مقوسة الظهر مترهلة المضل مسترخية المفاصل . وهي إذا بلغت الخامسة والعشرين غاض ماء شبابها وولت محاسنها . وإذا حبت إلى الأربعين خلتها إحدى العرافات المعجائز . وهي قلما

إليها الشك - يؤكد لنا أن عيش المرأة الاسترالية والمعاملة التي تلقاها من زوجها ما في مستوى لا يطمع أن يناله مثاث الألوف من اخواتهن ممن يعشن في الأحياء الحقيمة في بلاد الانجليز . وهو يؤكد أيضا أن النساء هناك لا يعاملن بالنسوة البالغة . وإذا كن يعشن - كما هو الواقع - معيشة ضنكا فإن ذلك العيش الضنك هو من نصيب الرجال أيضا .

ففي سنى الرخاء يحمد الرجال والنساء عملا يعملونه . أما في السنين المجاف فالرجال والنساء يتقاسمون الشقاء على سواء . والمرأة الاسترالية على خلاف أختها المتحضرة لا يتطلب منها أن تمضي الساعات الطوال في صنع ملابس زوجها ورتق جواربه . ذلك لأن الرجل الاسترالي هو بصفة عامة رجل عاز . وهو إذا اكتسب قنع بحزام يشده على وسطه وبعذة في حجم قطعة النقود من ذات خمسة القروش تتوسط ذلك الحزام . أما المرأة فلباسها حزام من المطاط يضاف إليه عند بعض القبائل مئزر من شعر .

أما العمل المنزلي عند أولئك القوم فهو أقل من القليل . وكذلك تربية الأطفال فانها عندهم ليست من المشكلات ذوات الخطر كما هي الحال عندنا .

ومن الحق أن الحب ، كما تدل عليه هذه الكلمة عندنا ، هو قليل الوجود أو نادره . والنساء اللاتي يأتين بفاحشة مبينة قاتنن يلاقين عقابا شديدا ، وذلك بكى أجسامهن بالنار . أما الندوب التي يراها الرءوت في أجسام النساء وقد تبلغ الأربعين عدا ومكانها ما بين السرة إلى ما فوق الثديين ، فليست من عمل الأزواج الغاضبين ، كما يؤكد سير بلدوين سبنسر .

أما تلك الندوب من عمل النساء أنفسهن ؛ لكي يشهدن الناس على إخلاصهن

من هنا وهناك

رضيت أن تعرض نفسها لتهمة السحر ، ولا أن تطوى أشعة القوارب أو أن تصعد إلى سقوف الأكواخ . ذلك لأن تحت السقوف تحفظ الملابس التي يلبسها رجال الجماعات السرية . وهي لذلك تعتبر ملابس مقدسة ، فاذا وقعت عليها عين المرأة أصبحت نجسة . والمرأة هناك يجوز لأبيها أو زوجها أن يرهنها في مقابل دين . فان غلق الرهن وكان الراهن أباهما جاز للدائن أن يضنها إلى حريمه . وقد يحدث - والشئ بالشيء يذكر - أنه إذا مرضت امرأة وكانت غير قادرة على أجر الطبيب كتبت على نفسها أن تكون له عبدة مدى الحياة إذا أبرأها من سقمها . وإلى جانب أمارات الذل التي سلف بيانها نجد كثيرات من النساء يعملن في الصناعة والتجارة ، ويجنبن من عملن ما يكتلنهن هن وأولادهن ، وإن كانت القاعدة أن الزوج هو صاحب رأس المال الأول . وإن ردت أن تلقى القوم الذين نساؤهم في الدرك الأسفل من الذل ، فانك واجدهم بين أقزام الغابات الاستوائية ، وكذلك أنت واجدهم في صحارى كهلمارى . وهم - كقوم رحل - ليس للنساء عمل يعملنه في المنزل أو في الحقل . وحياة نساءهم إنما هي دورة طويلة من الحمل والولادة ومن الحرمان يتخللها نوبات من النهم والبطنة يعقبها سبات هو أشبه بسبات الداهلين . ولكن يجب أن نقرر أن هذا الشقاء لا يرجع إلى سيطرة الرجل على المرأة ، وإنما يرجع إلى شقاء البيئة التي تعيش فيها ونحيا . وإن المرء ليجد اليوم قوماً يسكنون تلال نلجى في جنوب الهند يقال لهم « التودا » وهم يلبسون السبمائة عداء ، وهم يرون أن المرأة أدنى درجة من الرجل طبيعة وخلقة . ولذلك يرون أن الاتصال بها رجس ونجس .

تجاوز الحسين . وهذه هي ضريبة الشقاء والحرمان .

وفي القبائل الافريقية حيث تثبت الآراء الفطرية لنفوذ الغريبين وآرائهم يشبه مركز المرأة مركز أختها الاستراية . ولذلك اختص الرجال - كما يقول هافلوك أليس - بأعمال الحرب والقتال ، واختصت المرأة بأعمال الصناعة .

والمرأة هناك تعنى بتربية الاطفال وبكل عمل يمت إلى البيت بصفة . والرجل هناك يعنى بكل ما يزيد مفاصله صلابة ومتانة .

ويقول الكاتب ج . كلاريدج إن المرأة العادية في بلاد الكونغو تترجح في مثلئ تذيب رقاوى الساعة بين طفلها وحقلها ، وهما الشيطان اللذان يمثلان أهم ما تعنى به من أمور الحياة . فمن شروق الشمس إلى غروبها تجهد المرأة تمزق الأرض وتسقيها وتحصد الزرع وتحبى الثمار . وهي تقوم بهذه الاعمال وطفلها فوق ظهرها ، وهي ترى مرتين في النهار وهي تذهب لتلأ جرتها من العيون والأنهار . والعارفون يلبسون انتصاب قامة المرأة في تلك البلاد واعتدال قوامها إلى هذا النوع من العمل . والمرأة هناك هي التي تزرع الحضر وتطبخها . وهي التي تبني كوخها ، وتقيم من أوده إذا أضرت به الريح أو أ تلفه المطر . من أجل ذلك ينظر للمرأة بين قبائل افريقية كأنها عملية مالية مذهبة الحواشي ، تدور ربها وفيرا في صورة خدمات وأطفال . ومما يعنى من قدرها وينبئ من ثمنها أنها إذا ماتت كان لزوجها أن يتزوج - بغير مهر جديد - إحدى أخواتها غير المتزوجات . وهناك في نيجريا ترسف المرأة في قيود الذل في بعض نوحى العيش ، في حين أنها تظهر يقسط وافر من الحرية في بعض النواحي الأخرى .

ف هناك لا ينبغى للمرأة أن تصغر إلا إذا

من هنا وهناك

الشريرة من القرية ، وهن يقعن بهذا العمل في حفل صاحب ، وهن يمشين الهوينى ، وهن يقعن في كل ركن ، ويقعدن في كل زاوية يرقصن ويهجن . حتى إذا وصل الركب إلى جانب البر حيث ترسو السفينة وهى محملة بالهدايا التى تسترضى بها الأرواح الشريرة أصرت الكاهنة بأن تسير السفينة وهى تحمل فوق ظهرها الأرواح التى يظن أنها قد لجأت إليها ثم تجرى بها إلى بلد آخر .

وفى جزيرة سيلان يعيش شعب من سكان الكهوف . والمظنون أن هذا الشعب قد انحjar من سكان الجزيرة الأصليين ، وهم الآن قوم منبوذون . ولا تختلف معيشتهم عن معيشة الوحوش التى تأوى إلى الغابات التى يسكنها هؤلاء الناس .

وعلى الرغم من ذلك فإن رجالهم لا يعرفون تعدد الزوجات ، كما أن نساءهم لا يعرفن الحياة الزوجية . وهن يعشن على قدم المساواة مع الرجال .

مما تقدم يبدو أن القول المكرر المأد ، الذى يحىء دائماً فى صيغة التوكيد بأن المرأة فى الشعوب غير المتحضرة إن هى إلا دابة من دواب الحمل ، لا يصح الأخذ به إلا عند بعض الشعوب ؛ إذ عند كثير من الشعوب غير المتحضرة لا تلقى المرأة إلا التوقير والتكريم . والفكرة القديمة القائلة إن كلمة الأنوثة عند الشعوب التى تعيش على الفطرة هى إحدى مترادفات الرق والعبودية هى فكرة لا تثبت للتحجيم والتحقيق .

مبارك إبراهيم

ومن ثم نجد النساء ممنوعات من المشاركة فى حلب اللبن ومخضه ، وممنوعات أيضاً من العناية بالجواميس فى إبان الولادة والانتاج . وإذا انتقلت الجواميس من قرية إلى قرية كان على النساء أن يهجنن ييوتهن وأن يخرججن إلى الفسافات تحمل كل منهن شارة الأنوثة وهى المكنتة والغربال والهاون . والبنات مستثنيات من هذا المنع والتحریم حتى يبلغن مبلغ النساء . ولذلك فهن اللائى يقدمن للجواميس العلف ويتولين تنظيف الحظائر .

وكذلك الحال فى كبوديا بالهند الصينية حيث يحرم على المرأة أن تنام على الوسائد والحشايا التى ينام عليها زوجها .

وفى سيام تنوسد المرأة وسائد أقل درجة من وسائد زوجها للدلالة على نقصها .

وعند بعض الشعوب يرى من غير اللائق ومما ينافي الاحتشام أن تذكر النسوة أسماء أزواجهن .

وفى كثير من البلاد تعزل النساء عن الرجال إذا الليل جن . فتنام النساء والبنات فى البيوت ، وينام الرجال فى ساحات المدينة . وعلى عكس ما أسلفنا نجد للنساء المقام الأول فى بورنيو الشمالية . فالنساء هناك هن اللائى يتزعمن الاحتفالات الدينية ، والرجال هناك يقنعون بدق الطبول . والنساء هناك هن الكهنة . ويقال إنهن يؤدين الطقوس بلغة لا يفهمها الرجال . وكذلك من الموكلات بطرد الأرواح

عن الإنجليزية